(١)
القرآن
عطاء دائم

obeikandl.com

والقرآن الكريم آية من آيات الله.. لاتنقضى عجائبه.. وسيظل نور هداية لكل العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، سيظل أيضاً يقدم عطاؤه لكل الأزمنة، ويرى فيه كل جيل من الأجيال، وكل قرن من القرون الجديدة الذى استغلق على من سبقهم.. إنه نبع لا ينضب أبداً..

الذين يبحثون فى العلوم الكونية رأوا أن ماكشفوا عنه فى علومهم ووصلوا فيه إلى حقائق لايتنافى أبداً مع ما جاء فى القرآن الكريم عندما أشار إلى هذا العلم.

فالقرآن الكريم مثلاً عندما نزل فى شبه الجزيرة العربية، لم يكن العرب يعرفون من وسائل المواصلات التى تيسر عليهم الانتقال من مكان إلى مكان إلا الخيول والجمال والبغال والحمير، وليس العرب وحدهم بل كل العالم حتى العالم المتقدم فى زمانهم مثل الفرس والروم لم يعرفا من وسائل المواصلات إلا هذه الحيوانات التى تسهل عليهم مشاق الحياة، بجانب تقدمهم الحضارى عندما استخدموا المركبات ذات العجلات التى تجرها الخيول فقطعوا المسافات الطويلة بأقل قدر من المشقة..

عندما يتعرض القرآن الكريم لمثل هذه الأمور المتعلقة بدنيا الناس، يحدث الناس عن هذه الوسائل الملائمة لهذا العصر، ثم يتحدث عن أمور سوف تستجد فى المستقبل.

يقول جل من قائل:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فالعرب وغيرهم فى عهد نزول القرآن عرفوا الخيل والبغال والحمير، وفى العصور الحديثة أُخترعت السيارات والطائرات. وهذا ماينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد تطورت وسائل المواصلات بعد ذلك الى أمور لم يصل إليها بعد، فينطبق عليها القول الكريم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

فالعطاء متجدد لكل العصور بل إن القرآن عندما تحدث عن أمور غيبية فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، أمور سوف تتحقق فى المستقبل بالفعل..

فعندما هزمت الروم من قبل الفرس، وكان الروم أهل كتاب على عكس الفرس الذين كانوا يقدسون النار، واغتم المسلمون لذلك، ونزل قوله تعالى:

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ - ٤].

وتحقق ما وعد به القرآن الكريم فقد انتصر الروم بعد ذلك على الفرس.

* * *

فإذا ما توقفنا عند حديث القرآن الكريم عن كيفية خلق الإنسان منذ أن كان نطفة ومراحل تكوينه كجنين إلى اكتمال نموه.. فى الوقت الذى لم يعرف العالم يومها الأشعة والمناظير، التى يمكن أن تكشف عما يجرى فى ظلمات الرحم لوجدنا أن هذا القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى، وموحى به إلى هذا النبى الأمى الكريم الذى لم يدرس الطب، ولا دخل مدرسة ولا جامعة، ولا حتى كان يعرف القراءة والكتابة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

ويقول الطبيب الفرنسى الشهير (موريس بوكاى) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) وهو يتحدث عن تطور الجنين فى الرحم:

تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماما لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين، ولا يحتوى هذا الوصف على أى مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها. إذ يقول القرآن أن الجنين بعد مرحلة التشبث، وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة، يمر بمرحلة المضغة (أى اللحم الممضوغ) ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم ويعنى لحما نضراً».

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا . . . ﴾ [المؤمنون: ١٤].

المضغة: تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر، ويستحق هذا التمييز الالتفات. إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ. . ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة، وبعد أن تشكل العظام، تتغطى بالعضلات وعلى العضلات توافق كلمة لحم.

ويقول الطبيب الفرنسى متابعاً حديثه عن تكوين الجنين:

والمعروف إن بعض الأجزاء، فى أثناء مدة تطور الجنين، تبدو غير متناسبة مع ماسيكون عليه الفرد فى المستقبل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة.

ذلك هو معنى كلمة (مخلّق) هى تعنى مشكل. ينسب وقد جاءت فى الآية ٥ من سورة الحج لتشير إلى هذه الظاهرة!

﴿ . . . فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج: ٥].

ويذكر القرآن أيضاً ظهور الحواس والأحشاء:

﴿ . . وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ . . ﴾ [السجدة: ٩].

ويشير أيضاً إلى تشكيل الجنس.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩].

وكما قلنا فلابد من مقارنة هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى ثبتت - فى العصر الحديث - توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع والتى كانت سائدة فى عصر تنزيل القرآن حتى يدرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل. وليس هناك أدنى شك فى أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم. ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره. الواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر.

ويمضى موريس يوكاى يحدثنا عن تطور علم الأجنة حتى العصور الحديثة ثم يقول:

«عرف الناس القرآن بما يزيد على ألف عام قبل هذا العصر الذى كانت المعتقدات الوهمية تسوده.

إن مقولات القرآن عن التناسل البشرى تعبر فى ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها».

* * *

وهذا الإعجاز الذى نراه فى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن خلق الإنسان، نراه فى كل ما عرضه القرآن الكريم من مظاهر الوجود.. سواء فى الجبال أو السهول أو الأنهار أو البحار أو المحيطات، أو النجوم والكواكب فى المجرات.. أو على مستوى النفس البشرية.. عندما نستعرض ما قاله المتخصصون فى هذا المجال.. لانجد تناقضاً بين ماجاء به القرآن الكريم والحقائق العلمية.

وهذا ما حدى بالعديد من المفكرين الكبار فى العالم أن يقفوا مشدوهين، أمام عظمة صاحب هذه الرسالة، وعن هذا القرآن الكريم الذى جاء يحث على قراءة كتاب الكون، ومخلوقات الله، فى نفس الوقت الذى كان يدعو الناس إلى التوحيد الخالص، ونبذ عبادات تتنافى مع المنطق والعقل، بجانب مافيه من تشريعات وعقائد تنظم العلاقات بين الناس، بعضهم ببعض فى مختلف شئون الحياة وما ينبغى أن يكون عليه المسلم من قيم وفضائل وهو متسلح بما جاء به هذا النبى الكريم، وما أنزل عليه من وحى الله.

أو على حد تعبير موريس يوكاى فى نهاية كتابه «دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة»:

«ولايستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر وهذا بسبب حالة المعارف فى عصر محمد ﷺ، لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جداً حيث أن صحته أمر لايمكن الشك فيه، وحيث أن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو كأنها تتحدى أى تفسير وضعى، عقيمة حقاً المحاولات التى تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية».

* * *

وإذا كان القرآن الكريم له عطاؤه -كما قلنا لكل عصر - فإن المفسرين من علماء الدين والفقهاء ورجال العلم حاولوا تفسير القرآن الكريم..

البعض فسره تفسيراً لغوياً مكتفياً بالمعنى الظاهر.

والبعض الآخر حاول أن يفسره تفسيراً يحاول الوصول إلى الدلائل المختفية وراء الألفاظ والبعض الثالث حاول أن يفسره تفسيراً علمياً أى من خلال تفسير آياته على ضوء حقائق ماوصلت إليه العلوم فى عصره.

وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول:

«إنى لآتى على آية من كتاب الله أفهمها فأودُّ أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم. .».

أى أن ابن عباس كان يهتدى ببصيرته إلى معانى غير مألوفة للناس.

وأذكر أننى كنت أحاور الشيخ محمد متولى الشعراوى عن الإعجاز فى القرآن، وعندما سألته عن المقولة الشهيرة التى تقول أن اللغة العربية تتكون من نثر وشعر وقرآن قال:

- المقولة صحيحة ولها أدلة.

الأدلة أن اللغة ويقصد منها لا القواعد وإنما يقصد منها الأثر الناشىء عن الجمال فى الأداء للمعانى على حسب هذه القواعد.

فحين يتكلمون عن الأدب يتكلمون عنه إما نظماً وإما نثراً. وزادوا على ذلك نثراً فنياً.

فلما أرادوا أن يأخذوا الآثار المنسوبة إلى العربية لكى يصنفوها، وجدوا أن القرآن كلام أدبى عال وراق. فأرادوا أن يدخلوه فى تصنيف معين.

هل هو نثر؟

هل هو شعر؟

فإذا أدخلوه فى النثر فهو ليس على طريقة النثر.

وإن أدخلوه فى الشعر فهو ليس على طريقة الشعر.

وإن أدخلوه فى السجع فهو بعيد عن ذلك أيضاً.

فقالوا: إن القرآن لايصح أن يدخل فى هذا التقسيم.. لماذا؟

لأننا نتحدث عن لغة البشر وآثارها الإنتاجية فى الأدب والبيان والتصوير، ولكن القرآن لغته أعلى من لغة البشر.. فيجب ألا تدخل فى تقاسيم البشر.

إذن فاللغة العربية عبارة عن

* قرآن وهو كلام الله.

* غير قرآن وهو كلام الناس. كلام الناس على مقتضى الإفصاح والإبداع والبيان. أعنى اللغة الفصيحة.

وإن كان الكلام هو لغة الحاجات فهو العامية. هذا الإبداع إما أن يكون له نغم منضبط نسميه شعرا، وإذا لم يكن له نغم منضبط نسميه مرسلاً ونثراً، فإن كان من الناس من يجيد الإتقان الجمالى من الشعر يصبح ذلك هو النثر الفنى.

* * *

وقارىء القرآن الكريم وتفاسيره سوف يقف ليتأمل قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فما هو المحكم وماهو المتشابه؟

فى التفسير الوسيط للقرآن الكريم نقرأ رأى للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الذى يستعرض فيه آراء المفسرين، ووجهة نظرهم فيقول:

قوله تعالى: ﴿مُّحْكَمَاتٌ﴾ من الإحكام بكسر الهمزة، وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة، ترجع إلى شىء واحد هو المنع يقال: أحكمه عن الشىء أى أرجعه عنه ومنعه منه. ويقال حكم نفسه وحكم الناس، أى منع نفسه ومنع الناس عما لايليق. ويقال أحكم الفرس أى جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب.

وقوله ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى أصله الذى فيه عماد الدين وفرائضه وحدوده ومايحتاج إليه الناس فى دنياهم وآخرتهم.. وأم كل شىء: أصله وعماده.

قال ابن جرير: والعرب تسمى الأمر الجامع لمعظم الشىء أمًّا له، يسمون راية القوم التى تجمعهم فى العساكر أمهم، ويسمون المدبر لمعظم أمر البلدة والقرية أمها.

وقوله ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ من التشابه بمعنى أن يكون أحد الشيئين متشابهاً للآخر ومماثلاً ومشاكلاً له مشاكله تؤدى إلى الالتباس غالباً. قال: أمور مشتبه ومشبهة -كمعظمة- أى مشكلة ويقال: شبه عليه الأمر تشبهاً: لبس عليه.

ولقد جاء فى القرآن مايدل على أنه كله محكم فى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١].

وجاء فيه مايدل على أنه كله متشابه كما فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

وجاء فيه مايدل على أن بعضه متشابه كما فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها. ولاتعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة، لأن معنى إحكامه كله أنه متقن متين لايتطرق إليه خلل أو اضطراب.

ومعنى كونه كله متشابهاً أنه يشبه بعضه بعضاً فى بلاغته وفصاحته وإعجازه وهدايته.

ومعنى أن بعضه محكم وبعضه متشابه، فسنبينه بعد سرد بعض الأقوال التى قالها العلماء فى تحديد معنى كل منهما.

فمنهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذى لايحتمل النسخ، والمتشابه هو الخفى الذى لايدرك معناه وهو ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة والروح.

ومنهم من يرى أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان والمتشابه هو الذى لايستقل بنفسه، بل يحتاج إلى بيان، فتارة يبين بكذا، وتارة يبين بكذا، لحصول الاختلاف فى تأويله.

ومنهم من يرى أن المحكم هو الذى لايحتمل فى تأويله إلا وجهاً واحداً، والمتشابه هو الذى يحتمل أوجهاً. ومنهم من يرى أن المحكم ماكانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل.. هذه بعض الأقوال فى تحديد المحكم والمتشابه، وقد اختار كثير من المحققين هذا القول الأخير.

* * *

ويقول الدكتور محمد عبدالمنعم القيعى الذى كان أستاذاً ورئيساً لقسم التفسير بكلية أصول الدين عن المتشابه فى القرآن الكريم أن فى القرآن الكريم ألفاظ متشابهات لايعلم حقيقتها إلا الله يتعين الإيمان بها، وإثباتها لله كما نسبها لنفسه على مايليق به: مثل:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله ﴿يَدُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وقوله ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقوله ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]. وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]. وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقوله: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. وقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفى الأحاديث ألفاظ من هذا القبيل، مثل قدم الجبار، ونحو ذلك والأسلم: إثباتها كما أثبتها الله على مايليق بذاته المقدسة، وقد ظهرت فرق تعددت آراؤها بين مشبهة، ومؤولة، ومعطلة، ومفوضة، وممسكة عن الخوض فيها.

وأغلب هذه الآراء طرأت على المسلمين بعد اختلاطهم بغيرهم من أصحاب الأفكار الفلسفية، والطقوس الدينية، والنصوص الإسلامية مقدسة أكمل تقديس، ولايساغ صرفها عن ظاهرها وتأويلها إلا بشروط اشترطها علماء الإسلام واتفقوا عليها، ولابد من معرفة أى النصوص التى تؤول والتى لاتؤول، كما لابد من تحديد المعنى المراد من التأويل فإن اللفظ المشترك لكل معنى منه حد يميزها.

والتأويل مشترك بين التفسير وبين مايؤول إليه الشىء وينتهى وبين حرف اللفظ عن معناه الظاهر الراجح لغة إلى المعنى المرجوح.

ومن ذلك المتشابه رؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة كما قال:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢].

وفى الحديث أن النبى ﷺ نظر إلى القمر وقال:

إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لاتضامون فى رؤيته.

وأما الكفار فقال الله عنهم:

﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥].

ومن ذلك المتشابه: أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ومن شاء من رسله.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال لموسى:

﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن ذلك قوله:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٦٥].

وفى الحديث أن محمداً ﷺ خليل الرحمن.. كذلك وللمعتزلة رأى خاص فى هذه المتشابهات، فحكموا بامتناع الرؤية عقلاً لهذه الحواس، وأوّلوا كلام الله بأنه أوجده فى ذات ماتكلم به لا أنه تعالى متصف بالتكلم، وكذلك أولوا الخُلة مع التسليم بالنص والإيمان به.

ويرى الدكتور القيعي أن كل من سلم بالنص وآمن به فإنه لم يخرج عن الإسلام وإن أوّله تأويلا يغاير الظاهر فكل من كان كذلك فإنه يُقنع، ولايرمى بالكفر، فليس كل من خالف الحق يكفر كما كفر الفرق بعضهم بعضاً.. والصحيح أنه لايكفر إلا من جحد معلوماً عُلم عن الدين بالضرورة.

* * *

ونحن هنا لانتحدث عن إعجاز القرآن الكريم كآية من آيات الله تفصح عن صدق الرسول ﷺ وماجاء به من تعاليم، ولكن نقف مجرد وقفة أمامه.. وأمام إعجازه، حتى نوقن أنه من عند العزيز الحميد.

والعجيب أن من يقرأ القرآن الكريم ويتدبره يجد فيه حلاوة وطلاوة كما قال عنه الوليد بن المغيرة، عند سماعه له، فما بالك عندما يقرأه المؤمن، إن الخشوع يشده إلى الدخول فى عالمه، والدخول فى عالم القرآن الكريم يضفى على قارئه فتوحات وفيوضات روحية لايحسها إلا من يدخل فى هذه التجربة.. إن الروح تشف، والوجدان يشف، فيضىء القرآن الكريم جوانب الإنسان، حتى أنه يشعر بمشاعر لايستطيع المرء أن يجسدها، وقد نرى ذلك فيما عبر عنه أهل الله من الصوفية، عندما قال أحدهم.

- نحن فى نعمة لو عرفها الملوك لحاربونا عليها!

إن هذا الصوفى يشعر بشفافية روحه، وبهذا الحس المرهف الذى أصقله كتاب الله فيه، يشعر هذا الصوفى أنه يعيش لحظات سعادة لاتوصف، حتى أن الملوك يغبطونهم عليها، لو تذوقوا ماهم فيه من سعادة الوجد عند تخلص الروح من شوائب المادة، وهى تعلو إلى سماوات بالغة السمو، بفضل انجذابهم إلى هدى الرحمن، عندما يتلون كتاب الله، وعندما يعيشون لحظات الأنس بالنور الأسنى.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

القرآن الكريم يأخذ بيد المؤمن إلى طريق الهدى والرشاد.. يزيل غشاوة الجهل والجهالة عن عينيه، وينير له طريق الحياة، ويكون رفيقه عندما تنتهى رحلة العمر..

وصدق رسول الله ﷺ حين قال:

«إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته ما استطعتم».

وقال أيضاً:

«إن هذا القرآن حبل الله المتين، وانه هو النور المبين، والشفاء النافع عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه، لايعوج فيقوم، ولايزيغ فيستعتب، ولاتنقضى عجائبه، ولايخلق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته، بكل حرف عشر حسنات، ألا وإن أصفر البيوت من الخير، البيت الصفر من كتاب الله».

* * *

القرآن نور يتسلل إلى قلب المؤمن فيضىء جوانبه.. ومن يقرأه بتمعن وخشوع، يفتح الله عليه بفتوحات لايشعر بها إلا هذا المتدبر لكلام الله.. الخاشع لأوامره.. المبعد نفسه عما حرمه، ويشعر المعانى التى قد تخفى من ظاهر النص القرآنى.. ومن هنا قالوا: أن للقرآن ظاهراً وباطناً.

الظاهر: هو المعنى المباشر لكلمات الله كما نفهمها من خلال اللغة.

والباطن: هو المعنى الذى يمكن أن يتأوله القارىء، عندما يقرأ آيات الله تتلى، فيرى فيه غير ظاهرة..

فمثلاً عندما نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

نما إلى حدس عمر بن الخطاب أن هذه الآية تنعى رسول الله ﷺ، فماذا بعد اكتمال الدين، إلا النقصان، وأن الرسول ﷺ قد أدى الرسالة، وبالتالى اقترب الرحيل.

ولقد صدق حدس عمر، فلم يمر إلا واحداً وثمانين يوماً إلا ورحل أعظم رسل الله إلى جوار ربه الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام قال من الأحاديث مايعنى أن القرآن له معنى ظاهر وآخر باطن، وذلك ماروى عنه الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قال:

«ما أنزل الله آية إلا ولها ظهر وبطن».

ولكن ليس معنى ذلك أن نؤول القرآن هذا التأويل المفرط فى التأويل والبعيد عن العقل والمنطق، وصرف الكلمات إلى غير معناها، كما يدعى البعض.. أو على حد تعبير الشيخ أحمد حسن الباقورى وهو يحدثنا عن (القرآن بين الظاهر والباطن).

«. . . غير أن من الحق علينا أن نلفتك إلى ما لفتنا إليه أسلافنا الصالحون، من أن الملاحدة وأهل الأهواء حاولوا أن يستغلوا هذا المعنى فى القرآن الكريم لفظاً بلا معنى، أو جسماً بلا روح، فذلك حيث قالوا فى تأويل الآية:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]. أن المراد، أن الإمام من آل البيت ورث النبى، فجعلوا داوود هو النبى، وجعلوا سليمان هو الإمام من آل البيت، وجعلوا هذا الإمام وارثاً علم رسول الله.

وذكروا فى تأويل اليتيم، أنه الآخذ من المأذون له، إلى أن يظهر الداعى أو الإمام فيؤخذ عنه، وفسروا الصيام فى القرآن بأنه كتمان أسرار الدعوة الباطنية والإمساك عن الكشف عنها والإذاعة بأسرارها، وفسروا الكعبة بأنها النبى، والباب بأنه على، وفسروا الصفا -أيضاً- والمروة بأنها على، وفسروا التلبية فى الحج، بأنها إجابة الداعى إلى الإمام من آل البيت، وفسروا الطواف سبعا، بأنه الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، وفسروا نار إبراهيم بأنها غضب النمرود عليه، فليست هى ناراً حقيقية، وفسروا عصا موسى بأنها حجته وآيته التى لقفت شبه سحرة فرعون، وفسروا المن فى القرآن بأنه علم نزل من السماء، كما فسروا السلوى بأنها داع من الدعاة إلى المذهب، وفسروا تسبيح الجبال بالرجال الشداد فى الدين، والجن الذى ملكهم سليمان، بأنهم باطنية ذلك الزمان، وأما

الشياطين فهم الظاهرية الذين يأخذون بظواهر القرآن، وفسروا الآية: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. فذكروا أن المراد بفرعون هو القلب.. وراجع فى هذا الباب كتاب (الأدلة للشاطبى) وكتاب (الشكر) لحجة الإسلام الإمام الغزالى».

.. وهذا التعسف فى التأويل مرفوض..

فليس القرآن الكريم كتاب ألغاز وأحاجى.

ولكنه كتاب واضح المعانى.. رائع الأسلوب، قوى البيان، فيه كل مايجب على المؤمن أن يعرفه من أمور دينه ودنياه.. فقد تحدث عن العبادات والمواريث والاعتقاد، وفسر الرسول عليه الصلاة والسلام للناس ماغمض عليهم من أمور، وعلمهم الرسول الكريم: كيف تقام الصلاة.. وكيف تؤدى الزكاة، وطريقة الصوم وأداؤه ومبطلاته، وكيف تؤدى نسك الحج..!

وعرف المسلمون الأوائل أمور دينهم.. لأن الإسلام هو دين الفطرة..

بسيط للغاية..

سهل للغاية..

لا مشقة فيه ولا تطرف.. إنه دين الوسط.. والوسطية هى أهم مايميز الإسلام.. فلا عقد ولا طلاسم فيه.. ولاتعصب.. فهو دين الاعتدال.. حتى فى المأكل.. والمشرب.. لا فى العبادات فقط.

والرسول الكريم يقول: «خير الأمور أوسطها».

وبالتالى فإن التعنت فى التأويل القرآنى، ما ترفضه الفطرة السليمة.

كتاب الله معجز.. وآية من آيات الله.

إنه رفيق الإنسان فى دنياه.. يرشده إلى ماينبغى أن يكون عليه الإنسان حتى يحقق إنسانيته، وهو مرشد الجماعات والأمم، بما سنَّه من تشريعات فى العلاقات الدولية.. إنه نور هداية إلى يوم الدين.

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ويكفى أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظه فلم ولن يتغير فيه شىء مما أنزل الله، كما حدث للكتب التى سبقته:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وهذا الكتاب الكريم الذى فيه رسالة الله إلى الناس، حتى يعرفوا أمور دينهم ودنياهم، ويكون منهاج حياة، ودليل لما ينبغى أن يعرفه الإنسان حتى يعبر رحلة العمر ويواصل رحلته بعد الوفاة بنور من الله.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

ويقول تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وعلينا كما يقول الرسول الكريم أن نتعلم من هذا القرآن.

فقد قال:

«إن هذا القرآن مأدبة الله فى الأرض فتعلموا من مأدبته».

* * *

obeikandi.com